

في المقاربة الأدبية، ولا بنوعية المفاهيم المستثمرة فقط، وإنما أيضا من خلال الأسئلة النظرية التي يطرحها الاشتغال النقدي على النصوص عادة، في علاقة مباشرة مع التطور الثقافي نفسه، وتعدد أشكال تداوله، وانفتاح آفاق تلقيه في ارتباط بآليات النشر وسوق القراءة. وأحسب أن السمة الأساسية الغالبة على تلك الأسئلة تتمثل في الحدائث المحيطة لشكل الكتابة وموضوعاتها وطرائقها.

ولو أمعنا النظر في هذين الأمرين، من الزاوية التي تهتم بحثنا، لأمكن القول إن النصوص السير الذاتية أخذت تؤسس لنفسها وضعا أدبيا بين الأجناس الأخرى المتداولة، من المحتمل أن يضيف عليها، بدوره، طابع التأسيس. وربما كان التحديد الأجناسي رئيسيا في هذه العملية، لأنه يحمل في حد ذاته مجموعة من العناصر السننية (إسم المؤلف، العنوان، الجنس المفترض، اسم الناشر، عنوان السلسلة) توجه اختيار القارئ وبرنامج القراءة، مثلما تضع النصوص عادة في سلم «الشرعية الأدبية» ضمن الحقل الثقافي العام<sup>(1)</sup>.

ومن خلال تتبعنا للنصوص السير الذاتية الصادرة في المغرب، طوال العقود الأربعة الماضية، بقطع النظر عن طبيعة تواترها في هذا الصدور، يمكن الوقوف، إجمالاً، على خمسة أشكال متميزة نسبياً لمفهوم الكتابة السير الذاتية، نستخلصها من التسمية الإجناسية المصاحبة لها: 1 - السيرة الروائية الشطارية، 2 - السيرة الروائية، 3 - السيرة الذهنية، 4 - السيرة الذاتية، 5 - نصوص غفل غير مجنسة. وربما كان القاسم المشترك بين السير الممثلة لذلك، هو تعبيرها عن التجربة الشخصية للمؤلف (تاريخ الأنا) باصطناع ضمير الأنا المتكلم في غالب الأحيان، (مع وجود نصوص لم تنقيد بهذا المحدد)، واستثمارها للماضي الحياتي في تعبيره عن التطور النفسي والذهني والثقافي والاجتماعي الذي يتخذه مسار الحياة الفردية بين الطفولة والكهولة، أو ما بعد هذه، وتشغيل الذاكرة كحافضة للوقائع المروية، غالباً من خلال التذكر والاستعادة، علاوة على أن النصوص التي تندرج في هذا الإطار كتبت من طرف مؤلفين، لا نعدم وجود ما يدل على رتبهم الرمزية في الحقل الثقافي، سواء من خلال الاسم العلم أو بواسطة سجلات أخرى جديدة بالاعتبار (عتبات نصية، كالمقدمات والمداخل التي تحف بالنص، أو حوارات ثقافية يرد فيها ما يحيل على النص السير ذاتي، أو ميثاق إحالي معلن قد نعر عليه في النص... إلخ).

والواقع أن هذه ليست محددات كافية أو تامة، ولكنها مؤشرات، قد نعر عليها صريحة أو مضمرة، تفيد في تعيين النص السير ذاتي مقارنة بالرواية أو بغير هذه من

1 - Jacques Dubois, L'institution de la littérature; Editions Labor/Ferdinand Nathan, 1986 Brussels, p. 153